

## مَقَالَةٌ

## ديودور الصقلي

لم يهمل التاريخ مؤرخا كما أهمل ديودور..  
 ألف ديودور الصقلي كتابا في تاريخ العالم أو التاريخ العام على حد تعبيره، منذ فجر التاريخ إلى الحملة التي سار بها يوليوس قيصر على بلاد الغال سنة ٥٨ ق.م. وسماه «خزانة التاريخ». وهي مصدرنا الفرد في استقصاء أخباره وتعرف شخصيته، والوقوف على منازعه وآماله، فقد خلا الأدب القديم من ذكره اللهم إلا النبذة اليسيرة التي أثبتتها القديس جيروم في القرن الرابع بعد الميلاد، إذ قال في حوادث عام ٤٨ ق.م. «ديودور الصقلي مؤرخ يوناني أصبح مشهورا» ولعل من الحكمة أن نقف عند هذا التاريخ باعتباره السنة التي ظهر فيها أول جزء من كتاب ديودور فاشتهر به.

مسقط رأسه مدينة آجريبوم من أعمال صقلية، وهي إحدى المدن القديمة في داخل الجزيرة. وقد زارها هرقل كما قال ديودور [٤١ و٤٢] وانتشرت فيها عبادته انتشارا لا يضارعه إلا انتشار عبادة الآلهة الأوليمبية.. ويتحقق لدينا قوله إن آجريبوم مسقط رأسه من احتفاله بتاريخ هذه المدينة الصغيرة وحرصه على إيراد ما مر بها من حوادث بالتفصيل في «خزانتة».

ولقد عفا التاريخ على آثار هذه المدينة، ولكن شاءت الأقدار أن تبقى منها على حجرين اثنين، نقش على أحدهما اسم ديودور بن أبيلونيوس، فهل كان ذلك الحجر شاهدا على قبر المؤرخ؟  
 أين حصل ديودور العلم وعلى من من الأساتذة؟ وكيف اتجه إلى دراسة التاريخ؟ كل هذه أسئلة لا نحير لها جوابا. ولكننا نعلم على وجه التحقيق أنه كان يجمع مادة «خزائنه» في الأولمبياد الثمانين بعد المائة أى فيما بين عام ٦٠ وعام ٥٦ ق.م. وفي هذه الأثناء زار مصر ليصف آثارها ويقف على شيء من تاريخها.

يقول ديودور إنه رأى بعينه أثناء إقامته في مصر الشعب ثائرا يطالب بموت أحد أعضاء الوفد الروماني في مصر لأنه قتل هرة، هذا بالرغم مما كان يستشعره المصريون نحو روما من خوف، وبالرغم من أن بطليموس ملك البلاد لم يكن قد دعى بعد «صديق روما».

ومن المعروف أن بطليموس الحادى عشر قد اعتلى عرش البلاد سنة ٨٠ ق.م. وأنه ظل زهاء عشرين عاما مزعزع العرش لأن روما سيدة العالم حينئذ كانت مترددة في الاعتراف به ملكا للبلاد، ولكن في عام ٥٩ ق.م. اعترفت به روما ملكا بفضل المجهودات السياسية التي بذلها كل من قيصر وبومبيوس، ولكن ليس في مصادر التاريخ الروماني أية إشارة إلى ذلك الوفد الذى رأى ديودور أحد أعضائه يثير هذا الشغب الذى أودى بحياته أو كاد.

فإذا رجعنا إلى المؤرخ سيوتونيوس فى ترجمته لحياة قيصر، رأيناه يقرر أن قيصرا قبض من بطليموس هذا مبلغ ستة آلاف طالنت

أو ما يعادل نصف دخل البلاد في عام، ليضمن له اعتراف روما بشرعية ولايته للبلاد، فمن المعقول إذن أن يكون الأمر قد اقتضى إيفاد بعثة سياسية لدرس حالة البلاد، تمهيدا للاعتراف بالملك. وإن ما نعرفه من شدة حاجة قيصر إلى هذه الأموال، يحملنا على الاعتقاد أنه أوفد البعثة بعد انتخابه قنصلا في أول يناير سنة ٥٩ ق.م. مباشرة.

وإذن فقد كان ديودور مقيما في مصر في عام ٥٩ ق.م. فكم أقام بها؟ لا نستطيع أن نجزم برأى في ذلك. ولكن الظاهر أنه غادر مصر بعد عام ٥٧ ق.م. مباشرة. فقد بدأ في كتابه «خزانتة» في عام ٥٦ ق.م. ونحن نرجح أن يكون قد بدأ كتابه في بلاده حيث يستطيع أن ينظر في مراجعه وأسانيده.

أما أنه بدأ في كتابة «خزانتة» في عام ٥٦ ق.م. فنستنتجه من قوله إن آخر من حكم مصر من الأجانب هم المقدونيون يعني البطالسة، وأن حكمهم دام ستا وسبعين ومائتى عام [٤١ و٤٠]. ولما كان ديودور يقرر إن الإسكندر غزا مصر عام ٣٣١ ق.م. [١٧، ٤٩] إذن يكون ديودور قد بدأ كتابة «خزانتة» عام ٥٦ ق.م.

أما آخر الحوادث التي عاصرها ديودور وذكرها في «خزانتة» فهي قوله [١٦، ٧] «إن قيصر يعنى أوجسطس نقل أهل مدينة تورومنيوم من أعمال صقلية من موطنهم وأسكن فيه جالية رومانية» فمتى حدث ذلك؟ يقرر المؤرخ أبيان في كتابه «الحروب الأهلية» [٥، ١٠٩] أن هذه المدينة رفضت أن تفتح لأجسطس أبوابها حين التجأ إليها

فاضطر إلى لقاء سكتوس بومبيوس في عرض البحر ولم يكن قد اتخذ لذلك أهبته فدُجر أجسطس وفقد أسطوله ونجا بجلده في عام ٣٦ ق.م. فلو أن المدينة فتحت له أبوابها لاعتصم بها، وما أقحم نفسه في تلك الموقعة، وما خسر هذه الخسارة الفادحة، وهذا يفسر لنا سخطه على المدينة وعقابه لها بما ذكر ديودور. ويذكر ديوكاسيوس في كتابه «تاريخ روما» إنه بعد هزيمة سكتوس بومبي في عام ٣٦ ق.م. عاقب أجسطس كثيراً من مدن صقلية فلعل تورونيوم كانت من بينهما.

ولكن المؤرخ ديوكاسيوس يذكر [ك٥٤، ٧] أن أجسطس نظم أمور صقلية في سنة ٢١ ق.م. ويذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى أن تورونيوم قد حولت إلى مستعمرة رومانية في هذا التاريخ المتأخر. ولكننا لا نتصور أن أجسطس قد انتظر خمسة عشر عاما حتى يعاقب هذه المدينة على ما جنت، ولا نرى أن التنظيم الذي يشير إليه ديوكاسيوس كان يستدعي تحويل المدينة إلى مستعمرة رومانية بحال.

ويقرر ديودور [١، ٤] إنه قضى ثلاثين عاما في تأليف كتابه «خزانة التاريخ» وهذه الفترة الطويلة تشمل على الأرجح السنين التي قضاها في رحلاته إلى البلاد التي كتب عنها، وليس من المحتمل أن يكون قد بدأ رحلاته بمصر. بل الأرجح أنه زار روما عاصمة العالم كله حينئذ قبل زيارته لمصر في سنة ٥٩ ق.م. وأنه قضى ردحا من الزمن قبل ذلك في القراءة وجمع المصادر ومراجعة الوثائق. هذا من ناحية... ومن ناحية أخرى فإن ديودور كما يتجلى في كتاباته كان شديد الإعجاب بالإمبراطورية الرومانية مشيدا بمجدها، فليس من المعقول أن

يقول إن المقدونيين آخروا من حكم مصر من الأجانب لو أنه عاش إلى سنة ٣٠ ق.م. حين ضمت مصر إلى الإمبراطورية الرومانية. وإذن فقد توفي ديودور في إحدى السنين الواقعة بين سنة ٣٦ ق.م. وسنة ٣٠ ق.م. فإذا أضفنا إلى ذلك أن ديودور لم يشر إلى الصراع بين أنطونيوس وأجسطس، ولا إلى بوادر قيام الحرب الأهلية بينهما، ولا إلى اكفهارار جو السياسة في العالم الشرقي قبل قيام تلك الحرب، لكان من الطبيعي أن نقول إن ديودور مؤرخ ولد سنة ٩٥ ق.م. وبدأ في تأليف «خزانة التاريخ» سنة ٦٥ ق.م. ومات سنة ٣٥ ق.م. تقريبا. وقد ذكرنا أنه بدأ كتابة «الخزانة» سنة ٥٦ ق.م. والمرجح أنه نشر الأجزاء التي تمت بمجرد فراغه من كتابتها [٤، ١]، وهذا يتفق مع ما قاله سويداس في القرن العاشر بعد الميلاد من أن ديودور اشتهر كمؤرخ في عصر أجسطس بل قبله.



إن العمل الذي تصدى له ديودور هو كما قال تدوين القصص العامة (١، ٤) أو الحوادث العامة [٥، ١] أو هو بعبارة أخرى كتابة تاريخ العالم منذ بدء الخليقة إلى زمانه.

وإن وصف «عام» شائع مطرد في كتاباته إلى حد يدفع القارئ إلى التفكير في معنى الكلمة في ذهنه، وإلى الخروج من ذلك إلى اكتناه الغرض الذي رمى إليه المؤرخ بتأليف هذا الكتاب.

ففي السنوات العشر التي تلت سنة ٧٠ ق.م. رأى ديودور أن بومبيوس قد أخضع كل شواطئ البحر المتوسط لحكم روما، وكانت مصر

وحدها مستقلة استقلالا سوريا فحسب، فقد كان اعتلاء البطالسة عرش البلاد، رهنا بموافقة مجلس الشيوخ في روما. وظهر بومبيوس البحر من القراصنة الذين كانوا يعيثون فيه فسادا. وهكذا امتد النفوذ الروماني إلى أطراف العالم المتمدنين حينئذ، أو إلى أقاصى المعمورة كما قال ديودور (١، ٤)، واحتفل بومبيوس بهذا الانتصار الباهر على العالم الشرقي في عام ٦١ ق.م. ولعل ديودور قد شاهد هذا الاحتفال العظيم، أو هو سمع وصفه من أفواه الذين رأوه رأى العين.

فقد انتشرت الأعلام معلنة أن بومبيوس قد أخضع أربع عشرة دولة، وأدخل خزانة الإمبراطورية عشرين ألف طالنت، وضاعف -أو كاد- دخل الإمبراطورية السنوى. وبدا للمفكرين في تلك الأيام كأن روما قد ورثت تاج الإسكندر، وأنها تحمل لواء الرسالة التى وقف عليها حياته، وأن عهدا جديدا من السلام والإخاء والمساواة يكاد يسود العالم تحت راية روما، وأن النظرية الرواقية فى المواطن العالمى توشك أن تتحقق الآن وقد أصبحت الإنسانية تؤلف حضارة عامة واحدة، وجمعية إنسانية عامة، وهكذا أصبح فى وسع مؤرخ مثل ديودور أن يتحدث عن الحياة «العامة» التى تحياها شعوب البحر المتوسط التى صارت الآن مرتبطة أشد الارتباط تحت راية روما.

وإذا كان قولنا «الحضارة الغربية» يفيد حضارات مختلفة أشد الاختلاف فى أيامنا هذه مثل حضارتى الولايات المتحدة وأسبانيا مثلا، فلا ضير أن يتحدث المؤرخ فى سنة ٦٠ ق.م. عن حضارة «عامة» تضم حضارات

اليونانيين والسوريين والأسبانيين والرومانيين. فقد امتحت أمام جحافل روما حدود «المدينة الحرة» التي كان المواطن غريبا في كل مكان عداها، وأصبح تاريخ كل شعب محل اعتبار الشعوب الأخرى لأن هذا التاريخ يبين ما عسى أن يضيفه هذا الشعب من تراثه إلى هذه الحضارة العامة.

وإذن فقد كانت الدوافع لكتابة «الخرزانة التاريخية» هي نفس الدوافع التي حدثت بالكاتب الراحل هـج. ويلز إلى إخراج كتابه «معالم التاريخ» في أعقاب الحرب العالمية الأولى، إذ اصطدم الناس بمأساة الحرب، فلم يدركوا على وجه التحقيق هل هم يواجهون نكبة جائحة على الحضارة الإنسانية أم هم في مستهل عهد ذهبي جديد للجمعية الإنسانية، وتعلقوا بالأمل وصار كل مفكر يفكر كما لو كان مواطنا عالميا. كذلك كان المفكر الرواقى يؤمن بعد الحروب الأهلية بأن إخلاصه لفلسفته يدعوه إلى نشر مبادئه في وحدة الجنس الإنساني، خصوصا بعد أن اطمأن إلى أن الخضوع لحكومة واحدة لا يعنى فناء الثقافات المتباينة في ثقافة الدولة المسيطرة، الأمر الذى قامت روما شاهدا على صحته. وأصبح تأليف التاريخ الإنساني من وجهة النظر الرواقية رسالة فى إضعاف الروح القومية الجامحة، ووسيلة لإقامة صرح التفاهم بين الأمم بتوطيد الروابط الثقافية بينها. فلا غرو، وتلك رسالة المؤرخ الرواقى، أن يقرر ديودور أن تأليف تاريخ عام، أمر على أعظم جانب من الأهمية للقارئ المحقق [١، ٣].



ويدعى ديودور أنه زار كل الأماكن العظيمة الشأن في أوروبا وفي الشرق، وأنه لاقى في هذا السبيل متاعب وأهوالا جساما، ولكن ليس في كتاباته ما يثبت لنا أنه زار بلادا غير روما التي قضى فيها زمنا ما، ووجد فيها كثيرا من المواد الأساسية لدراسته [١، ٤]، ومصر، التي انحدر فيها جنوبا حتى منف. فقد ورد في وصف منف ذكر ضريح لإزيس «يرى إلى وقتنا هذا في حرم معبد هيفا بستوس» [١، ٢٢]. ويذهب البعض إلى أنه زار الأقصر، محتجين على ذلك بأن الدقة التي يمتاز بها وصفه لمعبد الرمسيوم [١، ٤٧] لا تتأتى إلا لشاهد عيان. ولكن إذا كان ديودور نفسه قد عزى الوصف إلى المؤرخ هيكاتيوس، فليس بنا من حاجة إلى افتراض أمر رحلته إلى الأقصر. أما سائر ما ورد في رواياته عن مصر من تفاصيل فقد يكون مستقى من هيروdot و هيكاتيوس والمؤرخ الجغرافي أجاثر خيديس إلا كنيدي الذي عاش في القرن الثاني ق.م.

ويشير ديودور أحيانا كثيرة إلى الوثائق المصرية الهيروغليفية كأنه اعتمد عليها في إثبات تاريخ البلاد. والواقع من الأمر أنه كان يجهل اللغة الهيروغليفية، فإشاراتة إلى النصوص الهيروغليفية مأخوذة من المؤرخ هيكاتيوس.

ونستطيع أن نؤكد كذلك أن ديودور لم يزر بلاد ما بين النهرين لأنه قال إن نينوى تقع على نهر الفرات. ومن حسن الظن به أن ننفي أمر زهابه إلى أثينا، هذا خير له من أن نقول إنه ذهب إليها ولم يجد في بدائع الأوروبول ما يستحق الذكر.

وقال ديودور إنه اكتسب من الرومانيين في صقلية معرفة واسعة باللغة اللاتينية [١ ، ٤]. ولا نستطيع أن نجزم بأنه استعمل في دراسته تاريخ روما المصادر اللاتينية أم المصادر اليونانية، ويذهب بعض النقاد إلى أنه كان يجهل اللغة اللاتينية جهلا يكاد يكون تاما، ولكننا لن نأخذ برأيهم دون تحفظ. فلعل معرفته باللغة اللاتينية كانت بالقدر الذي يسمح له بالنظر في المصادر ومراجعتها.



بدأ ديودور تاريخ العالم بعصر الأساطير ووقف عند سنة ٥٩ ق.م. وهي السنة التي تولى فيها قيصر القنصلية للمرة الأولى. وكانت «خزانة التاريخ» مؤلفة من أربعين جزءا، يظهر أنها كلها كانت على حجم واحد. ولم يبق منها إلا الأجزاء الخمسة الأولى، والأجزاء العشرة من الجزء الجادى عشر إلى الجزء العشرين، ووصلت إلينا مقتطفات من الأجزاء التي ضاعت مقتبسة في كتب بعض الكتاب الأقدمين وعلى رأسهم يوسيبوس Eusebius وعند المصنفين البيزنطيين.

ولقد وضع ديودور منهجا في المقدمة [١ ، ٤] يتبين منه أن الكتب الستة الأولى تقف عند الحروب الطروادية، والكتب الإحدى عشر التالية تتناول تاريخ العالم من الحروب الطروادية إلى موت الإسكندر أما الكتب الثلاثة والعشرين الأخيرة فتروى قصة العالم من موت الإسكندر إلى عام ٥٩ ق.م.

ولنفصل موضوعات الأجزاء المختلفة فيما يلي :

الكتاب ١ يتناول تاريخ مصر.

الكتاب ٢ يتناول تاريخ آشور والهند وبلاد العرب.

الكتاب ٣ يتناول تاريخ بلاد الحبشة ويبحث في أصل الآلهة.

الكتاب ٤ يتناول تاريخ الأساطير المتصلة بآلهة اليونانيين الكبرى،

وأسطورة السبعة ضد طيبة.

الكتاب ٥ يتناول تاريخ الجزائر الغربية وجزيرتي رودس وكريت.

وهذه الأجزاء ليست بذات خطر من الوجهة التاريخية المحضة، لأنها

تدور حول موضوعات واسعة لا يسهل حصرها، ولأنها كذلك محشوة

بالأساطير والخرافات.

الكتاب ٦ - ١٠ ضاعت، ولم يبق منها إلا مقطوعات تدور أقدمها حول

الحروب الطروادية وأحدثها تروى وقائع سنة ٤٨٠ ق.م. ومن هذا التاريخ

يعتمد ديودور على كتاب المؤرخ إفوروس Ephorus «في التاريخ العام».

الكتاب ١١ يتناول تاريخ الفترة من ٤٨٠ إلى ٤٥١ ق.م.

الكتاب ١٢ يتناول تاريخ الفترة من ٤٥٠ إلى ٤١٦ ق.م.

ونلاحظ هنا أن ديودور هو الحجة الكبرى في تاريخ الفترة الواقعة

بين ٤٨٠ ق.م. و٤٣٠ ق.م. فقد تناولها ثيوكديدس باختصار في ثلاثين

فصلا فقط.

الكتاب ١٣ يتناول تاريخ الفترة من ٤١٥ إلى ٤٠٥ ق.م.

الكتاب ١٤ يتناول تاريخ الفترة من ٤٠٤ إلى ٣٨٧ ق.م.

الكتاب ١٥ يتناول تاريخ الفترة من ٣٨٦ إلى ٣٦١ ق.م.  
ويلاحظ أن هذه الكتب ليست بذات خطر لأن المؤرخين  
ثيوكلويديس وكريونفون قد تناولا الفترة الواقعة بين سنة ٤٣٠ ق.م.  
و٣٦٢ ق.م بالتفصيل وكلاهما معاصر لحوادثها.

الكتاب ١٦ يتناول تاريخ الفترة من ٣٦٠ إلى ٣٣٦ ق.م.  
الكتاب ١٧ يتناول تاريخ الفترة من ٣٣٥ إلى ٣٢٤ ق.م.  
الكتاب ١٨ يتناول تاريخ الفترة من ٣٢٣ إلى ٣١٨ ق.م.  
الكتاب ١٩ يتناول تاريخ الفترة من ٣١٧ إلى ٣١١ ق.م.  
الكتاب ٢٠ يتناول تاريخ الفترة من ٣١٠ إلى ٣٠٢ ق.م.  
ويلاحظ أن هذه الكتب عظيمة الشأن من الناحية التاريخية،  
ففى تاريخ الفترة الواقعة بين ٣٣٦ و٣٢٣ ق.م. ديودور هو العمدة  
الأكبر فهو يسرد حوادثها مسلسلة سنة بعد أخرى، ويعطى بذلك صورة  
شاملة لعهد فيليب المقدونى، وهو فى الفترة الواقعة بين سنة ٣٣٦  
وسنة ٣٠٢، يسد الثغرات التى تقع بين المؤرخين الأقدمين. فيكمل  
ما يدور فى تواريخهم من نقص. أما عن تاريخ خلفاء الإسكندر فديودور  
هو المرجع الوحيد فى أيدى المؤرخين، ولذلك كان للكتب ١٨ و١٩  
و٢٠ شأن كبير.

الكتب ٣١ - ٤٠ تتناول الفترة الواقعة بين ٣٠١ و٣٦٠ ق.م.  
ولم يبق منها إلا مقطوعات قليلة.



والآراء متضاربة في أمر طريقة ديودور في التأليف. فيرى البعض أنه يعتمد في تاريخ عصر ما على مؤلف واحد يختاره، ثم يسد ما يبدو له من أوجه النقص من مؤلفين آخرين، ولكننا لا نستطيع أن نقر هذا الرأي، فإن الكتاب الأول «في مصر» يثبت أنه رجع إلى مصادر كثيرة، وأنه استوعبها كلها، وأنه بدأ في الكتابة بعد دراسة طويلة لمراجعته، وأنه يذكر أحيانا مصادره، ويغفل ذكرها أحيانا أخرى.

ويقول ديودور إن تأليف كتاب في التاريخ العام عمل شاق [١،٣] لأن مواد الدراسة متفرقة في كتب كثيرة، والآراء فيها متباينة تباينا شديدا، ولعله اختار هذا النحو من القول لإبلاغ القارئ أن ما في الكتاب مستقى من مصادر سابقة، هذا إلى أن في اختيار العنوان «خزانة التاريخ» ما يشي إلى أن ديودور يرى أن تاريخه لا يعدو أن يكون ملخصا وافيا لتاريخ مطول في مصادر متفرقة.